عبد القادر الرسَّام .. لوحة العراق التاريخيَّة

الكاتب:الصباح
التاريخ:10/3/2016

تم تقيم الموضوع من قبل 0 قراء

إعداد/ زياد جسام

عد الفنان عبد القادر الرسام (1882 ـ 1952) أول فنان تشكيلي عراقي في العصر الحديث، علما انه امتهن الفن ليعتاش على وارداته المادية بعد أن انهارت الدولة العثمانية، وهذا عد حدثا تاريخيا على مستوى الثقافة العراقية،

أول رائد تشكيلي

إعداد/ زياد جسام

عد الفنان عبد القادر الرسام (1882 ـ 1952) أول فنان تشكيلي عراقي في العصر الحديث، علما انه امتهن الفن ليعتاش على وارداته المادية بعد أن انهارت الدولة العثمانية، وهذا عد حدثا تاريخيا على مستوى الثقافة العراقية، وعليه بذلت جهود حثيثة طوال عقود لجمع لوحاته، ولوحات رواد آخرين، جايلوه أو ظهروا في السنوات التي سبقت وفاته بقليل. الموقع الرمزي الذي يحتله الفنان عبد القادر الرسام في ذاكرة الفن التشكيلي العراقي تعبر عنه الصورة المرفقة التي التقطت في بداية الخمسينيات، اذ تجمعه هذه الصورة بعدد من الرسامين والنحاتين الشباب الذين اكملوا المسيرة بعد رحيله في صنع فن بذائقة وحساسية جمالية عراقية. كان من بين الظاهرين بالصورة جواد سليم وعيسى حنا وعطا صبري وحافظ الدروبي، كما عبرت تلك الصورة عن سلوك أخلاقي اتسم بالكثير من الصدق والوفاء.

الأب الروحي

لم يكن أولئك الشباب معنيين من خلال تمردهم على تجربة أبيهم الروحي عبد القادر الرسام، فهم اصروا على ضرورة أن يكون لمحاولاتهم الفنية والابداعية هوية خاصة لكل واحد منهم. أما من جانب موقعه الرمزي بوصفه رائدا للفن العراقي المعاصر فهو يمثل رجل كل العصور التالية كما سماه بعض المتخصصين. لوحاته التي جمعت من قبل المهتمين هي نواة متحف الرواد الذي كان يحتل بناية تراثية في شارع الرشيد، على نهر دجلة، اذ تعود هذه البناية إلى بدايات تأسيس الدولة العراقية. بقي ذلك المتحف وتطور مع تطور المؤسسات الثقافية، اذ اصبحت اعماله الرسام الفنية تشكل أحد أجنحة متحف الرواد الذي ضم أعمال مجموعة من الفنانين العراقيين لكل واحد منهم جناح يضم عشرات الاعمال الفنية، استمر ذلك المتحف باستقبال الضيوف لحين الاحتلال عام 2003، اذ تم نهب المتاحف العراقية ومن بينها متحف الرواد.

أستعيدت أعداد قليلة من اللوحات التي سرقت، غير أن عددا كبيرا منها ظل متواريا لفترة من الزمن. حتى اصبحت لوحات عبد القادر الرسام وأخرى من مقتنيات المتاحف العراقية تباع بالمزادات العالمية وبشكل معلن، فقد بيعت للفنان الرسام لوحتان بمزاد كرستيس الشهير في فرنسا، واحدة منهما كانت تحمل اسم «نزهة على الشاطئ» وكانت مجرد محاولة للرسم، انتقل من خلالها رسامها من الهواية إلى الاحتراف، غير أن تلك المحاولة اكتسبت في ما بعد معاني أخرى، ليست اقل من الرغبة في صنع مستقبل يكون الفن جزءا حيويا من ماكنة خياله.

فنان واقعي

ينتمي عبد القادر الرسام إلى الجيل الأول من الرسامين التشكيليين العراقيين وكان من أبرز عناصر مجموعة الفنانين الذين تدربوا في اسطنبول وجلبوا خبراتهم إلى وطنهم الأم. تعد هذه المجموعة من الفنانين ـ الجنود، أول من أدخل فن الرسم على حامل اللوحات إلى العراق في مطلع القرن العشرين. اشتهر الرسام، الذي كان من فناني الأسلوب الواقعي، بمناظره الطبيعية الفسيحة ورسومه الشخصية الغاية في الدقة، وتصويره الأمين لمشاهد الحياة اليومية في العراق آنذاك، وهو من أبرز الرسامين غزيري الإنتاج في تاريخ الفن التشكيلي العراقي، مما جعل أعماله تؤثر بشدة في رسامي الأجيال التالية.

كان الرسام من مجموعة الضباط العراقيين الذين درسوا العلوم العسكرية، فضلا عن الفنون في اسطنبول، وقد باشر تعليمه في سنة 1904، عندما كانت الإمبراطورية العثمانية لا تزال السلطة الرئيسة الحاكمة في المنطقة. وكجزء من المنهج التعليمي في اسطنبول، كان يطلب من عبد القادر الرسام وزملائه انجاز لوحات ملونة ورسوم تخطيطية للأغراض العسكرية. كانت تلك الصور تتماشى بدقة مع الأسلوب الأكاديمي الأوروبي الصارم. ولحرصهم على تعميق مهاراتهم الجديدة، سعى أفراد مجموعة الضباط تلك إلى الحصول على دروس تدريبية خاصة بالرسم، فتتلمذ الرسام على يد عدد من الرسامين البارزين المقيمين في اسطنبول، والذين كانوا يتبعون الأسلوب الفرنسي المعاصر. مع أنه تميز على الأكثر بالرسم الزيتي، كما عمل في تلك الفترة كذلك بالألوان المائية مصورا اسطنبول بحشودها وأسواقها، وقد أظهر حتى في تلك المرحلة من بدايات مسيرته، خبرة في الرسم ودقة كبيرتين.

أعيقت طموحات الرسام مع اندلاع الحرب العالمية الأولى، غير أنه بعد انتهاء الحرب مباشرة، عندما رجع الفنانون ـ الجنود إلى العراق، عاود ممارسته للرسم على الحامل، وعلى غرار زملائه، ركز اهتمامه على المناظر الطبيعية والمشاهد العسكرية والمواقع الأثرية.

وعي فني

من أهم سمات ذلك الجيل من الرواد رغبتهم في تحفيز الوعي الفني وتذوق الأعمال الفنية في أوساط الجمهور العراقي، لذا باشر عبد القادر الرسام بتقديم دروس في الرسم داخل مرسمه في بغداد، وكان يشجع الفنانين المبتدئين على متابعة تحصيلهم الفني في الخارج. نتيجة لهذه الجهود المبكرة، أصبح الرسام يتمتع بتأثير هائل بين أبناء الأجيال اللاحقة. تحققت رغبة الفنان في نشر الوعي الفني بصورة أجدى عندما أصبح عضو شرف في جمعية أصدقاء الفن، وهي مجموعة كانت تهدف لإنماء الاهتمام بصناعة الفن لدى الجمهور وتعزيز مهارات أفرادها من خلال التفاعل.

مع استخدامه النمط الأكاديمي نفسه على غرار زملائه الأوائل، أنجز عبد القادر الرسام لوحاته بواقعية صارمة ملتقطا مشاهد حية من الريف العراقي. استخدم الألوان المشرقة التي نراها في لوحاته الزيتية بأفضل ميزاتها وقد عرف باتقانه لرسم المنظور والتفاصيل. رسم في معظم الأحيان مناظر شاملة للرؤية في تصويره المواقع التاريخية على طول ضفاف نهر دجلة. تشكل آثار المدائن أو الجامع الكبير في سامراء أمثلة أنموذجية مميزة في أعماله، كان نهر دجلة بمثابة الموضوع الرئيس في العديد من لوحاته. يخلق النهر بجريانه المتعرج كلما ابتعد، من خلال استخدام متقن للمنظور الجوي، مع النشاطات على ضفافه، منظرا طبيعيا واسع المدى. رسم العديد من الصور الشخصية، اذ كان يتقن تفصيلاتها مع عوالم خلفية طبيعية مثل الغيوم وغيرها، كل لوحاته التي رسمها كانت واقعية بحتة، والمعروف عن هذا الاتجاه الفني كما يقول الكثير من النقاد والمتخصصين ومنهم الاستاذ عباس الصراف في كتابه (آفاق النقد التشكيلي): «الواقعية مرحلة من مراحل الفن وليست مدرسة أو مذهبا. والمفروض أن تلك المرحلة قد انتهى عصرها مع الأجيال الماضية. واضاف أن «الواقعية في الفن الأساس والمنطلق لكل الأساليب الفنية الابداعية والتأملية، وهي المحتوى الذي يعتمده كل فنان ويمر من تحته. هي رصيد الفنان والمدرسة الأولى، والمنبع الذي يغترف منه كبار الفنانين لينطلقوا ويأتوا بالجديد. لكنها مع ذلك تبقى أسلوبا أو طريقة مرحلية تنتهي بانتهاء فترة تعلم الفنان منها الأساليب المدرسية والطرق الاكاديمية، الى الحد الذي قد يتخلى الكثير من الفنانين عنها».

تصوير الحياة

غير أن هناك آراء تقول بأن تصوير الحياة الاجتماعية العامة لايأتي تعبيريا وفنيا إلا بالأسلوب الواقعي القائم على وصف السلوك البشري والبيئة اليومية، لذلك صار الواقعيون هم الأقرب للناس الذين لايفقهون من المدارس الأخرى شيئا.

ولو تفحصنا الحضارات الانسانية لمختلف الشعوب والأمم لوجدناها مليئة بالأعمال الفنية الكلاسيكية بأسلوبها الواقعي. والتي دلت على قوة الإدراك الذهني للفنان وعواطفه الهادئة الرصينة، فضلا عن عدم وجود آلة التصوير آنذاك. فأصبحت تلك اللوحات الواقعية التي تنقل صورا تاريخية تتداولها الأجيال وفهمها الإنسان البسيط من خلال وضوحها ومباشرتها.ظهرالأسلوب الواقعي في الفن التشكيلي منذ منتصف القرن التاسع عشر في أوروبا وبالتحديد في فرنسا وانكلترا سنة (1800). وبرزت في فن الرسم والعمارة. باعتماد الطرق المدرسية من خلال طرح عناصر العمل الفني اعتمادا على ظاهرة الضوء والتشريح والفوتوغراف وفق الضوابط الأكاديمية، فالأسلوب الواقعي الذي اشتغل عليه الفنان عبد القادر الرسام بين مهارته وحرفيته. من خلال القواعد المدرسية واكاديميا،إذ تظهر رصانته واتزانه وذكاؤه في العمل الفني. فضلا عن شعور المتلقي البسيط من الطبقات العامة من الناس بالقرب من العمل الفني من خلال سهولة المحاكاة للواقع والمباشرة في الرؤية التي وثقتها لوحاته مثل المناظر الطبيعية والاثار العراقية وبعض الشخوص المعروفة في
زمنه.

جيل الرواد

شكل جيل الرواد في الفن التشكيلي العراقي الذي كان ينتمي له الرسام أساسا متينا للحركة التشكيلية في العراق وهذا بالتأكيد ارتبط بمناخ خاص، ما ساعد هذا الجيل على النهوض بحركة رائدة ما تزال آثارها قائمة حتى الآن كنتائج وأفكار عامة عن الفن التشكيلي العراقي، وهذه الحركة التشكيلية قامت على أساس أسماء بارزة ومحددة، وأغلب الكتب تناولت مسيرتهم الفنية ولا تزال تذكرهم، ولا تزال بعض القاعات الفنية تعرض أعمالهم، لأنهم كانوا ومازالوا يشكلون منافسا حقيقيا لباقي الاجيال. من خلال من يشاهد بعض الاعمال المختارة للرسامين العراقيين اثناء عرضها في الكثير من القاعات الفنية فإنه يؤخذ بسحر الإنجاز للفن العراقي الحديث ولكنه سرعان ما يقف متأملا أمام ما تثير لديه هذه الاعمال ضمن رؤية عاطفية او رؤية فنية اكاديمية. نعم لقد شغل رواد الفن رؤية جمالية وابداعية من خلال التجارب اللونية واستحداث تقنيات جديدة على مستوى الشكل والتكوينات، ورافق ذلك وعي بالمشكلات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية وما كان يحيق بأبناء العراق في كل
الأزمنة.

عبد القادر الرسام (1882 – 1952) ولد في بغداد ودرس الفن إلى جانب العلوم العسكرية في المدرسة الحربية في العاصمة العثمانية، وتتلمذ على يد أساتذة الفن هناك وصاحب مشاهير الفنانين وتأثر بأساليبهم التقليدية المستمدة أصولها من الواقعية الأوروبية، أسس مع الجيل الأول للفنانين العراقيين جمعية أصدقاء الفن وعرض أعماله في أول معرض لها عام 1941 وشارك في بقية
معارضها.